مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(٢ كور ٦:١٦–١٨؛ ٧:١)

يا إخوةُ أنتم هيكلُ اللهِ الحيِّ كما قالَ اللهُ إنّي سأسكُنُ فيهم وأسيرُ فيما بينَهم وأكونُ لهم إلهاً وهم يكونونَ لي شعباً* فلذلك اخرُجوا من بينهم واعتزلوا يقولُ الربُّ ولا تمسُّوا نجساً* فأقبلَكم وأكونُ لكم أباً وتكونونَ أنتُم لي بنينَ وبناتٍ يقولُ الربُّ القدير* وإذ لنا هذه المواعِدُ أيُّها الأحبَّاءُ فلنُطهِّرْ أنفُسَنا من كلِّ أدناسِ الجسدِ والروحِ ونكمِّلِ القداسةَ بمخافةِ الله.

الإنجيل

(متى ١٥:٢١–٢٨)

في ذلك الزمان خرجَ يسوعُ إلى نواحي صورَ وصيدا وإذا بامرأةٍ كنعانيَّةٍ قد خرجتْ من تلك التُخومِ وصرختْ إليهِ قائلةً إرحمني يا ربُّ يا ابنَ داود فإنَّ ابنتي بها شيطانٌ يعذِّبُها جدًّا* فلم يُجِبْها بكلمةٍ. فدنا

العدد ٦/٢٠٠٦

الأحد ٥ شباط

تذكار القديسة أغاثي الشهيدة

اللحن الثامن

إنجيل السَحَر الحادي عشر

ابن داود

«متى كَمُلَتْ أيامكَ واضطجعتَ مع آبائكَ أُقيمُ بعدكَ نسلكَ الذي يخرج من أحشائكَ وأُثبِّتُ مملكتَهُ. هو يبني بيتًا لاسمي وأنا أُثبِّتُ كرسيَّ مملكتِهِ إلى الأبد. أنا أكونُ لهُ أبًا وهو يكون لي ابنًا» (٢ صمو ٧:١٢–١٤). بهذه الكلمات خاطب الرب الإله فتاه داود، بلسان النبي ناثان، وبهذه النبوءة تركز رجاء شعب إسرائيل في سلالة داود فصار كل ملك يخرج من صلبه «مسيح الرب» لأهل زمانه، الآتي من لدن الله رحمة لشعبه وتحقيقا لتدابيره الخلاصية فيهم. وقد تركز هذا الرجاء في وجدان إسرائيل إلى حد أنه امتد إلى الشعوب المجاورة، وإن كانت ما بلغت عمق معانيه ولا عاشته إيمانًا. مثالنا على هذا القول الكنعانية ابنة فينيقيا الوثنية، في الإنجيل المتلو علينا اليوم، وهي تنادي الرب يسوع بلقب «ابن داود» ملتمسة منه لابنتها المريضة رحمة وشفاءً. من الإضاءة على شخصية داود ودوره في التاريخ الإلهي نصل إلى فهم معنى لقب «ابن داود»، متى أطلق في الأناجيل على الرب يسوع.

لقد برز داود بامتياز، إنسانًا وملكًا، حتى صار عهد الله مع شعبه منذ عصر داود عهدًا يُعقَد بواسطة الملك، ووعود الخلاص تقترن باسمه كما في نبوءة النبي إشعياء عن مجيء المسيح (٩:٧) وفي بشارة الملاك للعذراء مريم في إنجيل لوقا (١:٣٢). هذا وانتصارات داود كلها صوّرت غلبة مسيح الرب على ظلم الشرير، وهو ممتلئ من روح الرب. وفي العهد الجديد كمّل يسوع بقيامته الظافرة وعود الله لداود، على ما يوضح سفر أعمال الرسل (١٣:٣٢–٣٧)، وفي ختوم التاريخ الإلهي (رؤيا ٥:٥).

منذ دعا الله داود وكرّسه له بيد النبي صموئيل، باركه بمواهب كثيرة إضافة إلى القوة وجمال الطلعة وفصاحة اللسان (١ صمو ١٦:١–١٨)، ولازمه مؤازرًا إياه في كل مساعيه وفي كل حروبه التي خاضها ملكًا على إسرائيل. «وكان الرب يخلّص داود حيثما توجّه»، يقول سفر صموئيل الثاني (٨:١٤). هذا وقد أوكل الله إلى داود، كما إلى موسى من قبله، رعاية شعب إسرائيل فآلت إليه الوعود القديمة إلى الآباء الأولين وأبرزها الوعد بامتلاك أرض الكنعانيين. حارب داود الفلسطينيين منذ عهد شاوول

تلاميذُهُ وسألوهُ قائلين إصرِفْها فإنَّها تصيحُ في إثْرِنا* فأجابَ وقالَ لهم لم أُرسَلْ إلاَّ إلى الخرافِ الضالَّةِ من بيتِ إسرائيل* فأتتْ وسجدتْ لهُ قائلةً أغِثني يا ربُّ* فأجابَ قائلاً ليس حسناً أن يُؤخَذَ خبزُ البنينَ ويُلقَى للكلاب* فقالتْ نعم يا ربُّ فإنَّ الكلابَ أيضاً تأكُلُ مِنَ الفُتاتِ الذي يسقطُ من موائدِ أربابِها* حينئذٍ أجابَ يسوعُ وقال لها يا امرأةُ عظيمٌ إيمانكِ فليكُنْ لكِ كما أردتِ* فشُفيتِ ابنتُها من تلك الساعة.

تأمل

«وأية موافقة لهيكل الله مع الأوثان، فإنكم أنتم هيكل الله الحي» (٢ كور ٦:١٦).

ما يقصده هو التالي: إن ملككم لا يملك شيئاً مشتركاً مع الشيطان، ولا شركة أيضاً بين النور والظلمة، وبالتالي لا شركة بينكم وبين الوثنيين. يشير أولاً إلى الملك ثم إلى الشعب وبعدها يقارن بين هيكل الله وهيكل الأوثان، موضحاً «انهم هيكل الله الحي»، ولا يقولها عن مبالغة لأنه يستشهد بأقوال الأنبياء: «كما قال الله: إني سأسكن فيهم، وأسير بينهم، وأكون لهم إلهاً، وهم يكونون لي شعباً» (٢ كور ٦:١٦).

وطيلة زمان حكمه هو، منتقلاً من نصر إلى نصر حتى فتحِهِ أورشليم، وهي باتت تدعى مذّاك مدينة داود. حول أورشليم توحّد أسباط إسرائيل مملكة واحدة، وإليها حمل داود تابوت العهد محوّلاً انتصاره لله وخاتمًا المدينة الجديدة بختم التقديس. هناك أيضًا استبان داود كاهنًا للعلي إذ «أصعدَ داودُ محرقاتٍ أمام الرب وذبائح سلامة ... وباركَ الشعبَ باسمِ رب الجنود وقسم على جميعِ الشعبِ على كل جمهورِ إسرائيلَ رجالاً ونساءً على كل واحدٍ رغيفَ خبزٍ وكأسَ خمرٍ وقُرصَ زبيبٍ» (٢صمو ٦:١٧-٢٠).أما الأهم فهو أن داود بقي في كل وقت أمينًا لدعوته حافظًا اتصاله بالله اتصالاً عميقًا، موكلاً أمره إلى تدبير الله وحكمته، مسلّمًا ذاته بالكلية لإرادة الله سيده. «ها أنذا فليفعل بي حسبما يحسن في عينيه»، هذه لسان حاله في الضيقات واثقًا بأن الرب سوف يحول ضيقاته في النهاية إلى بركات لأن الاتضاع بات في علاقته مع الله أساسًا. حفظ داود نفسه أمام الله عبدًا وضيعًا وإن كان مغمورًا بعطايا الله له، واثقًا على الدوام، رافعًا الابتهال والتسابيح باستمرار (١٨:٧-٢٩).

قد يبعث التماع نجم داود، في ملكه وفي روحانيته، على الاعتقاد بأن وعود الله قد تحققت فيه. بيد أن النبوءة الجديدة، التي أردناها في مطلع هذا المقال، أتت تعطي مفهوم رجاء إسرائيل بعدًا أعمق. فداود كان بصدد بناء هيكل حجري لله، فأخبره السيد القدوس أنه يريد منه أن يبني له ذرية ستكون أبدية. رجاء إسرائيل صار إذًا يتجاوز داود وزمانه إلى المستقبل، عهدًا جديدًا لا يجد ملءه في شخص الملك بل يتكون عبر ذرية الملك، طالما أن الله حاضرٌ فيها يرشدها إلى تمام مقاصده. «من ثمرةِ بطنِكَ أجعلُ على كرسيِّكَ. إن حفظَ بنوكَ عهدي وشهاداتي التي أعلّمُهُم إياها فبنوهُمْ أيضًا إلى الأبد يجلسون على كرسيِّكَ» (مز ١٣٢: ١١-١٢). خلاص إسرائيل يأتي إذًا من نسل داود لا منه، وإن كان هو موحّد شعب الله كهنوتيًا حول تابوت العهد علامة حضور الله الحسية. خلاص إسرائيل الموعود يأتي به الابن ذو الاسم المشير العجيب، الذي لا نهاية لرئاسته، الجالس على كرسي داود ومملكته ليثبتها بالحق والعدل إلى الأبد، على ما يرد في سفر إشعياء (٩:٦-٧).

ولما آن الأوان، أي لما نضجت في البشرية ظروف اقتبال الخلاص، دُعيَ المسيح «ابن داود» على ما في الآية الأولى لإنجيل متى. والمسيح ما رفض هذه التسمية، وإن كانت لا تصف سر شخصه وصفًا كافيًا. يسوع أتى إلى العالم إتمامًا للوعود التي قطعها الله لداود، ولكنه يعلن أيضًا للملأ أنه أعظم من داود، بل رب لداود (متى ٢٢:٤٣-٤٥). يسوع ليس استمرارًا لداود عبد الله وراعي شعبه، بل الله الآتي بنفسه راعيًا يطلب الضال ويسترد المطرود ويجبر الكسير، ويحكم بالعدل بين الكباش والتيوس (حز ٣٤:١٥-١٧). يسوع الآتي من ذرية داود، هو أصل ذرية داود وكوكب الصبح المنير، وله الروح والعروس يقولان تعالَ (رؤيا ٢٢:١٦-١٧).

سفر المزامير

« ليكن لك محبة بلا شبع لتلاوة المزامير، لأنها غذاء الروح» (القديس اسحق السرياني).

يشكل سِفر المزامير مع اسفار أيوب والجامعة والأمثال ونشيد

سأسكن فيهم يقول الرب وأسير فيما بينهم. وسأسكن فيهم كما في هياكل. هكذا يعبّر الله عن ارتباطه الوثيق مع المؤمنين. ماذا تقول بعد هذا؟ عندك الله في داخلك، وتركض وراء غير المؤمنين؟ هذا الإله الذي ليس لديه أي شيء مشترك معهم، كيف يمكن أن يغفر لك مثل هذا؟ تفكر جيداً من هو كائن فيك ومن الذي يسير!...

«لذلك اخرجوا من بينهم واعتزلوا، يقول الرب، ولا تمسّوا نجساً فأقبلكم يقول الرب» (٢ كور ١٧:٦). لم يقل لا ترتكبوا خطايا، بل أراد أن يتكلم بأكثر دقّة، فقال لا تقتربوا منهم. ما هو يا ترى الدنس الجسدي؟ هو الزنى وكل ما يرافقه من خلاعة. وما هو الدنس النفسي؟ هو الأفكار الشريرة والنظرات العدائيّة والبغض والغش وما شابه، وهو يريد أن نكون طاهرين من الجهتين.

أرأيت مقدار حجم المكافأة! سوف نتحرّر من الشرور ونتّحد بالله وأكثر من ذلك: «وأكون لكم أباً، وتكونون أنتم لي بنين وبنات، يقول الرب القدير» (٢ كور ١٨:٦).

أرأيت كيف سبق النبي فكشف عن العلاقة الجديدة الحاضرة أي عن ولادتنا الجديدة بالنعمة الإلهيّة؟

«فإذ لنا هذه المواعد

الأنشاد القسم الثالث من العهد القديم، وتُسمَّى هذه الكتب بالكتب الحكمية. يحتوي سِفر المزامير على مئة وخمسين نشيداً يُنسب أكثرها إلى الملك داود النبي، وقد نُظمت هذه المزامير شعراً، كل آية فيها شطران أو ثلاثة. إنها مجموعة شعرية غاية في الجمال والنفحة النبوية والعمق الروحي مما جعلها تعبر الزمن ولا تتغيّر.

تُعبِّر المزامير عن المشاعر والاختبارات الإنسانية بمختلف أنواعها، من عمق الكآبة والحزن إلى قمة الفرح والسرور. ومع انها نشأت من مناسبات خاصة فهي خالدة على مدى العصور، وقد حافظت على جمالها ووقعها في النفوس في كل الترجمات واللغات.

يحتل كتاب المزامير مكاناً مهماً في الحياة الليتورجية في الكنيسة الأرثوذكسية، كما كان يُعتبر كتاب الصلاة في العهد القديم. فقد دخلت المزامير الخِدَم الطقسية منذ القديم في السَحَر والغروب وصلاة النوم والقداس الإلهي والساعات، وهناك مزامير نتلوها في الأعياد: المزمور ١١٠ في عيد الميلاد، والـ١١٤ في عيد الظهور الإلهي، والـ٦٨ في الفصح والـ٢٤ في الصعود، والـ ١٣٧ في فترة الصوم الكبير.

المزامير في جوهرها صلاة، وهي جواب الإنسان إلى الله الذي يناديه في كل وضع من أوضاع حياته. لقد كتب أحدهم: «نولد وهذا الكتاب في أحشائنا. كتاب صغير: ١٥٠ مزموراً، ١٥٠ درجة سلّم مشيّدة بين الموت والحياة، ١٥٠ مرآة لتمرّدنا وأمانتنا، لاحتضاراتنا وقياماتنا. إنه أكثر من كتاب، فرد كائن حي يتكلم - يكلّمك - ويتألم ويئن ويموت ويقوم من بين الأموات ويغني، على عتبة الأبدية...». نحس بالظلمة والحزن فنقرأ المزمور

٤٣ مثلاً لتستنير أرواحنا من الداخل: «اقضِ لي يا الله وخاصم مخاصمي... لماذا أتمشى حزيناً من مضايقة العدو. ارسل نورك وحقك، هما يهديانني ويأتيان بي إلى جبل قدسك وإلى مساكنك. فآتي إلى مذبح الله، إلى الله بهجة فرحي، وأحمدك بالعود يا الله إلهي. لماذا أنتِ منحنية يا نفس ولماذا تئنين مني؟ ترَّجي الله لأني بعدُ أحمده، خلاص وجهي إلهي». عندما نشعر بالخوف نقرأ المزمور ٢٧ فنحس بالرجاء. «الرب نوري وخلاصي ممن أخاف. الرب حصن حياتي ممن أرتعب... انتظر الرب. ليتشدّد قلبك وانتظر الرب». متى كنا فرحين فليس هناك أجمل من المزامير لتعبِّر عن هذا الفرح في داخلنا: «سبِّحوا الرب لأنّ الترنيم لإلهنا صالح لأنه ملذّ. التسبيح لائق... أجيبوا الرب بحمدٍ. رنِّموا لإلهنا بعودٍ» (مز ١٤٧: ١ و٧).

كلمة Psalmos (بسالموس) اليونانية معناها نشيد يرافقه العزف على آلة موسيقية تُسمَّى Psaltirion (بسالتيريون) أو المزمار. فقد كان اليهود ينشدون أناشيد وأدعية نظمها النبي داود وغيره، سُمِّيتْ باسم الآلة التي كانت تصحبها أي المزمار. إلا اننا لا نعرف بالضبط ما إذا كان المزمار آلة نفخ موسيقية أم آلة وترية. الترجمة السبعينية اليونانية للعهد القديم استعملت عبارة Psaltirion أحياناً بدل الكلمة العبرية كنّور (كنارة أو ربابة) وأحياناً بدل كلمة نوله ومعناها العود. لذا فقد اعتبر العديد من العلماء ان المزمار هو آلة موسيقية وترية وان عدد أوتارها عشرة : «احمدوا الرب بالعود، بربابة ذات عشرة أوتار، رنّموا له» (مز ٢:٣٣).

يُنسب سفر المزامير المقدس إلى داود الملك والنبي لأن أكثر أناشيده

أيها الأحباء، فلنطهّر أنفسنا من كل أدناس الجسد والروح ونكمّل القداسة بمخافة الله» (٢كور ٧:١).
ما هي هذه المواعيد؟ انّكم هيكل الله، أبناؤه وبناته، إنه يسكن فينا ويسير بيننا. إننا شعبه وهو إلهنا وأبونا، ولذا يقول: «لنطهّر ذواتنا من كلّ دنس الجسد والروح». لا نقتربنّ من غير الطاهرين لأننا هكذا ندنّس الجسد، ولا نقتربنّ ممّا يدنس أنفسنا لأننا هكذا ندنّس الروح. ويضيف على كل ذلك «مكمّلين القداسة بخوف الله»، لأنه لا يكفي ألاّ نقترب من الأشياء الدنسة غير الطاهرة حتى نصبح طاهرين، بل علينا أيضاً أن نجاهد لكي يكون لدينا انتباه وتقوى وقداسة. قال «بخوف الله» لأنه يمكن للواحد ألاّ يجاهد بخوف الله، بل بمجد باطل. وهو يقصد أيضاً الطريقة التي بواسطتها نصل إلى القداسة. إن كانت الشهوة قوية، سوف تُقطع بخوف الله. والقداسة هنا لا تعني فقط العفة، بل أيضاً التحرّر من كل خطيئة.
القديس هو الطاهر. والطاهر يصير طاهراً بتجنّب الزنى والطمع والحسد والمجد الباطل وغيرها، وعمل الإحسان.

القديس يوحنا الذهبي الفم

تعود إليه. وقد كُتب هذا السفر بإلهام الروح القدس كما جاء في إنجيل الرسول مرقس: «لأن داودَ نفسَهُ قالَ بالروحِ القدسِ قال الرب لربي إجلِسْ عن يميني حتى أضعَ أعداءَكَ موطئًا لقدميكَ» (٣٦:١٢)، وكما قال الإنجيلي لوقا في سفر أعمال الرسل: «القائلُ (أي الله) بفمِ داودَ فتاكَ لماذا ارتجَّتِ الأممُ وتفكَّرَ الشعوبُ بالباطلِ» (٤: ٢٥).

لقد أجمع آباء الكنيسة وكتّابها على أن كل المزامير كُتبت بوحي الروح القدس وإلهامه، رغم علمهم أن داود لم يكتبها كلها. وهذا لا يقلل من أهمية هذه الأناشيد الشريفة. المهم الرسالة التي تحملها لنا هذه الأناشيد. لقد كتب العلاّمة ثيودوريتوس عن كتاب المزامير: «ذهب كثيرون إلى القول إن داود وحده ليس مؤلف المزامير كلها، وإن له شركاء في تأليفها، واستندوا على ما ورد من عناوين المزامير التي تشير إلى أن منها ما هو ليَدثون ومنها ما هو لإيثان ولبني قورح وغيرها لآساف. وسفر أخبار الأيام دعا هؤلاء جميعًا أنبياء. فلا أدخل في المناظرة معهم، وإنما يهمني أننا جميعًا على اتفاق بأن هذا الكتاب كُتب بإلهام إلهي». هذا وقد أحصى بعض المعلّمين اليهود عدد مؤلفي المزامير فقالوا عشرة.

داود الملك هو الذي جمع المزامير التي كُتبت في أيامه. وقد كان معروفًا باهتمامه بترتيب شؤون العبادة والترنيم: «إن داود أقام المغنين أمام المذبح ولقّنهم ألحانًا لذيذة السماع جعلها للأعياد رونقًا وللمواسم زينة إلى الإنقضاء لكي يُسبّح اسمه القدوس ويُرنّم في قدسه منذ الصباح» (يشوع بن سيراخ ٤٧: ١١).

مع انتشار العبادة الوثنية بين اليهود في أيام الملك آحاز الرديء (٧٤٢-٧٢٧ ق.م) تبعثرت المزامير نتيجة إهمالها مع الكتب المقدسة الأخرى، إلى أن قام الملك حزقيّا (٧١٥ ق.م) بإصلاح ديني جدّد فيه رونق العبادة القديمة، فجمع المزامير ثانية.

تبعثرت الكتب ثانية مع سبي بابل (٥٨٦ ق.م) ولم يُعَد جمعها إلا مع عزرا الكاهن بعد العودة من سبي بابل (٥٣٨ ق.م)، وصارت مرتّبة بالشكل الذي نعرفه الآن، كذلك جمع كل ما عثر عليه من المزامير ورتبها بشكلها الحالي. وكان كل مرة يعثر على دفعة من المزامير كان يضيفها إلى ما سبق. وعليه فإن ترتيبها الحالي ليس حسب تاريخ كتابتها بل حسب زمن العثور عليها.

أخيرًا، إن زمن تأليف كل من المزامير يختلف بحسب زمن مؤلفه والمناسبة التي دعت لتأليف كل مزمور. أقدم المزامير هو المزمور ٨٩ الذي عنوانه «صلاة لموسى رجل الله»، وأحدث مزمور هو المزمور ١١٩ الذي يُظن أنه لنحميا الحاكم السياسي ليهوذا بعد عودة الشعب من سبي بابل في أواخر القرن السادس قبل الميلاد.

سأل أخٌ الأب فيليمون: «يا أبتي لماذا تجد بهجة (لذة) في تلاوة المزامير أكثر من أي جزء من الكتاب الإلهي؟ ولماذا عندما ترتلها تقول الكلمات وكأنك تتكلّم مع شخص ما؟ فأجاب الأب فيليمون: يا ابني الله طبع المزامير على نفسي الحقيرة كما فعل بنفس النبي داود. لا أستطيع أن أنفصل عن حلاوة الرؤى التي تتكلم عنها المزامير. إنها تحتوي على الكتاب المقدَّس كله.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:
www.quartos.org.lb